خطبة صلاة الجمعة 21/ 6/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الأدب مع الله تعالى)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9، 10]، قال ابن كثير في "تفسيره": (قد أفلح من زكّى نفسه وطهّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل).

أخرج الترمذي بإسناده عن سعيد بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا من نَحْلٍ أفضلَ من أدبٍ حَسَنٍ»**.

وأخرج عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المؤمِنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ يبْغضُ الفَاحِشَ البَذيءَ»**.

عنوان خطبة اليوم: الأدب مع الله تعالى.

أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلةٍ تلو الأخرى، تجتمع حينا وتتتابع حينا آخر، بعض هذه المنازل يمر بها السالك فيقطعها ثم يتجاوزها إلى غيرها، وبعضها يمر بها ويصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه، ومن منازل السائرين التي يصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه ولو تركها لرُدَّ من حيث جاء (منزلة الأدب).

اعتنى علماء الإسلام بالآداب وصنفوا فيها المصنفات الكثيرة، فنجد أهل القرآن جعلوا (آداب حامل القرآن) واحداً من علوم القرآن، صنّف فيه الإمام النووي كتابه المشهور: "التبيان في آداب حملة القرآن"، ونجد أهل الحديث عدّوا الأدب نوعاً من أنواع علوم الحديث التي جاوزت الستين، كتب ابن الصلاح في مقدمته الشهيرة بـ "مقدمة ابن الصلاح" في علوم الحديث قال: (النوع السابع والعشرون: معرفة آداب المحدث، والنوع الثامن والعشرون: معرفة آداب طالب الحديث).

ونجد أهل الفقه جعلوا الأدب جزءاً من علوم الفقه فأدخلوه في مصنفاتهم، بل وأفردوه بالتأليف حتى صنفوا فيه كتباً منها: كتاب "آداب المفتي والمستفتي".

ونجد أهل اللغة العربية جعلوا الأدب عنوان هذه اللغة حتى سمّوا علوم اللغة قاطبةً: "الأدب العربي"، وسُمِّيت الكليات والفروع الجامعية المختصّة بتعليم اللغة: (كلية الآداب).

ثمّ إن أهل التربية الروحية جعلوا الأدب عنوان حياتهم، وطريقة تربيتهم للمريدين، فكانوا يتحدثون عن أدب المسلم مع ربه، وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأدبه مع إخوانه، وأدبه مع والديه، وأدبه مع معلِّمِيه، وأدبه مع سائر المسلمين، وأدبه مع الكافرين، وأدبه مع نفسه.

قال الحسن البصري: "كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثمّ السنتين".

وقال سفيان الثوري: "كان الرجل لا يطلب العلم حتى يتأدب ويتعبد قبل ذلك".

وقال مالك بن أنس: "كانت أمي تُعَمِّمُني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة الرأي فتعلّم من أدبه قبل عِلمه".

وقال رويم لابنه: "يا بني اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً".

وقالوا: إن الأدب ليرفع المملوك فيجلسُه في مجالس الملوك.

أيها الإخوة:

الْأَدَبِ: هُوَ إِصْلَاحِ الأقوال والأفعال والأحوال وفق ما جاء في القرآن والسنة وتعارفه أولو الألباب.

وثمة فرق بين الخُلُق والأدب وإن كان كل منهما يكمل الآخر.

فالخُلق: هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة، وقد يجبل المرء على الأخلاق وقد يتكلّفها حتى تصبح طبيعة فيه.

أما الأدب: فهو أعمال وأقوال شرعها القرآن والسنة أو تعارفها النجباء؛ يتكلّفها المرء ليتزيّن بها.

فالخُلق ما يصدر من داخل المرء، والأدب ما يتكلفه من ظاهره.

الخُلق ما يصدر من داخل المرء كالحياء والحِلم واللطف، والأدب ما يتكلفه من ظاهره كآداب النوم والاستئذان والمناظرة ونحوها.

والأدب أربعة؛ فأدب مع الله، وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم، وأدب مع الخلق، وأدب مع النفس.. وعنوان خطبة اليوم: الأدب مع الله تعالى.

حسبك في الأدب مع الله تعالى أن تطالع القرآن والسنة لتجدهما عامرين بالآداب قائمين بها.

أولاً: ففي القرآن الكريم:

تأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وخطابهم وسؤالهم لتجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به، فهم أهل الكمال في الأدب مع الله تعالى، قال سيدنا إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 78] ولم يقل وإذا أمرضني حفظا للأدب مع الله.

قال سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: 116] ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب.. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116].

وَقَالُ سيدنا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ولم يقل: رب قدَّرت عليّ وقضيت.

وقال سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] ولم يقل مسستني بالضر، ومع أنه مرضه كان شديداً لم يقل أنهكني الضر، بل قال: مسني الضر، والمس هو الإصابة الخفيفة.

وَقَالُ سيدنا يُوسُفَ لِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: 100] وَلَمْ يَقُلْ: وضعني في السجن، فذكر نعمة الإخراج ولم يذكر فتنة الإدخال مراعاةً للأدب مع الله.

وقال (أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) لم يقل: أخرجني من الجب، حفظا للأدب مع إخوته لكيلا يخجلَهم ويذكرَهم بما فعلوه بإلقائه في الجب.

وقالَ: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ولم يقل من بعد أن وسوس الشيطان لإخوتي.

وَقال الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]. ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها، فأضاف العيب إلى نفسه فقال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا . .﴾ وأضاف الخير الذى فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 82].

وَقال مُؤْمِنو الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10] فلم يقولوا: أشرٌ أراده الله بمن في الأرض.

فكمال الأدب مع الله تعالى تجدونه في القرآن الكريم على لسان الرسل الكرام والصالحين.. ليتعلم أحدنا الأدب مع الله تعالى في أقواله وأفعاله وأحواله.

ثانياً: وفي السنة المطهرة:

ثم تجدون الأدب العالي مع الله تعالى في تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- فمن الأدب مع الله تعالى في تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أمرُ النبي صلى الله عليه وسلم الرجل أن يستر عورته وإن كان خالياً لا يراه أحد، إجلالاً لله تعالى وتعظيما له وحياء منه وأدباً معه.

أخرج الترمذي عن بهز بن حكيم حدثني أبي عن جدي قال: قلت يا رسول الله: عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟!: قال «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو مما ملكت يمينك**»، فقال الرجل: يكون مع الرجل، قال: «**إن استطعت أن لا يراها أحد فأفعل**»، قلت: والرجل يكون خالياً قال: «**فالله أحق أن يستحيا منه**».

- ومن الأدب مع الله أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه، قَالَ تَعَالَى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

وكم كانت الأمهات يعتنين بالأولاد الصغار فينظفنهم ويُلْبِسنَهم أحسن الثياب إذا أرادوا الذهاب مع آبائهم إلى صلاة الجمعة.

وكم رأينا من أمهاتنا من تطيّب ثوب صلاتها وسجادة صلاتها، ولا ترضى لأحد أن يمسها بما لا ينبغي.. أدباً مع الله تعالى.

- وَمِنَ الْأَدَبِ مع الله تعالى: نهي النبي صلى الله عليه وسلم المصلي أن يرفع بصره إلى السماء.

قال العلماء: هذا من كمال أدب الصلاة؛ أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً خافضاً طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق.. إذ من الأدب مع الملوك أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه.

- ومن الأدب مع الله تعالى: نهيه صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: لأن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام أولى به.

- ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا جلس أحدُكم على حاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبِرْها**».

- ومن الأدب مع الله: السكون في الصلاة وعدم الالتفات فيها، فعن أبي ذر الغفاري قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يزال الله عز وجل مُقْبِلا على العبد وهو في صلاته، ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه**». [أخرجه أبو داود، والنسائي].

وروى عبدالله بن المبارك بإسناده سئل عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] أهم الذين يصلون دائماً قال: لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه، وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة.

- ومن الأدب مع الله تعالى أن ينفق من أحب المال لديه أو من أوسطه وأن يطيب به نفساً، وألا ينفق من أسوأ المال. قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، ذكروا عن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت إذا تصدقت بدرهم طيبته، فسألت عن ذلك فقالت: أحببت أن يكون درهمي مطيبا؛ لأنه يقع في يد الله قبل يد السائل.

أيها الإخوة:

ينفع في اكتساب الأدب مع الله تعالى الإكثار من ذكر الله ومطالعة الكتاب والسنة وصحبة أهل الأدب.

واعلموا أن العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ولكنه يصل بأدبه في الطاعة إلى الله تعالى، ومن صاحب الملوك بغير أدب أسلمه إلى الطرد.

قال يحيي بن معاذ: إذا ترك العارف أدبه مع ربه فقد هلك مع الهالكين.

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

نسأل الله أن يرزقنا الأدب معه سبحانه، ومع أنبيائه ورسله، ومع سائر خلقه.

اللهم أدبنا بآداب رسولك وخلقنا بأخلاقه وجملنا بصفاته وحققنا بمتابعته.

والحمد لله رب العالمين